

الرسول ينتزع المبادأة من يد أعدائه

روى الإمام أحمد والبخارى عن سليمان بن صرد والبخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم ، والبيهقي عن قتادة رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال حين أجلي الله تعالى عنه الأحزاب : الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم^(١) .

قرار خطير ونقطة تحول تاريخية :

هذا الحديث الشريف ، قرار خطير في تاريخ الإسلام يستحق أن نقف أمامه بكثير من التأمل والتدبر . لما ينطوى عليه وما ترتب عليه من دروس تنفع المسلمين وتبهر لهم الطريق للخروج من واقعهم الأليم .. ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

[هود : ١٢٠]

(١) محمد بن يوسف العاصمي الشامي ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي بِيَدِكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيُثَوِّبَ عَلَيْكُمْ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

[النساء : ٢٦]

قد كان هذا القرار نقطة تحول بارزة في صراع المسلمين مع
هم في عصر النبوة ، انتقلت فيها المبادرة^(١) إلى أيديهم لأول
في تاريخ هذا الصراع ، وترتب على هذا الانتقال آثار بعيدة
، .. فطوال الفترة التي قضاها في المدينة من يوم الهجرة إلى
ل غزوة الخندق ، كانوا يتلقون هجمات أعدائهم ويواجهونها
بارك دفاعية. كان أبرزها غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة
في السنة الثالثة : ثم كانت غزوة الخندق في السنة الخامسة
واجهوا فيها هجوم قريش والقبائل العربية واليهود .. فقرار
ل القائد عليه السلام بعد غزوة الخندق (الأحزاب) : «الآن نغزوهم
يغزوننا ، نحن نسير إليهم» ، معناه أن يتحول المسلمون من
ع إلى الهجوم ، وأن يسيروا إلى أعدائهم بدلاً من البقاء إنتظاراً
اتهم ، وبعبارة أخرى فإن معنى القرار أن يتحول المسلمون من
«رد الفعل» إلى «الفاعل» .. ولا بد هنا من أن نصحح ما في
الأذهان من خطأ في فهم معنى «الهجوم» على أنه يعنى العدوان

(المبادرة (أو المبادرة) معناها باختصار حرية العمل ، والذي يملك المبادرة
خصمه من حرية العمل ، ويختصر أعماله في نطاق رد الفعل وإحراز المبادرة
م عوامل الضر والنجاح في الحرب والسياسة على حد سواء .

أو الاغتصاب ، فالهجوم شكل من أشكال العمليات الحربية تتم فيه القوة إلى العدو وتوجه ضربتها إليه في مواقعه ، وطبيعة الهجوم تجعل الهجوم شكلاً من الأشكال الضرورية لتحقيق الأهداف في إطار العمليات الدفاعية ، ومن الأقوال الشهيرة في هذا المعنى «الهجوم خير وسيلة للدفاع» .

فليس من صواب الرأي أن نعتبر الهجوم مرادفاً للعدوان أو منادياً على نوابه ، ولقد أوضح لنا الرسول القائد ﷺ هذا المعنى وأكد معارك عصر النبوة فكل الغزوات والسرايا التي تحرك فيها المسلمون عدوهم ليوجهوا إليه ضرباتهم هي «عمليات هجومية» تمت في «استراتيجية دفاعية» تستهدف الدفاع عن الدعوة وحرية الدين ، ولم يندعوا إلى الاغتصاب أو القهر هدفاً من أهدافها ، وإنما كانت أهدافها حقاً وعدلاً ودفعا للاعتداء وإعلاء لكلمة الله .

أسس هذا التحول التاريخي :

وخطورة هذا القرار التاريخي وما ترتب على تنفيذه من تداعياتنا إلى محاولة تقضى الأسس التي بنى عليها ، فإن تنفيذ القرار ينطوي على مواجهة تحديات كبيرة أهمها أن المسلمون عملياتهم للقبلة ضد قريش سوف يتركون المدينة قاعدتهم الرئيسة ويسيروا أربعمئة كيلو متر في أرض أقل ما يقال فيها أنها غير صديقة ، ثم يتجهون إلى مكة قاعدة قريش الرئيسية

ما فيها من قوة بشرية بأكبر حشد ، وبكل ما فيها من «حوافر معنوية» لأهلها للدفاع عنها فى معركة تعد «معركة مصير» بالنسبة إليهم .

وليس من شك فى أن الرسول ﷺ كان مدركا لحجم هذه التحديات التى لم يسبق أن واجه المسلمون مثلها ، - ومع ذلك - كان «مطمئناً» إلى إتخاذ قراره بكل ما له من عواقب ونتائج .

والواقع أن مما يعين على استخلاص أسس ذلك القرار ، استقرار تطور لأحداث خلال السنوات الخمس الأولى للهجرة :

شل قريش فى تحقيق أهدافها :

ففى خلال تلك الفترة كانت قريش تملك زمام المبادرة ، لكنها لم تتطع تحقيق هدفها الأساسى وهو القضاء على الإسلام أو القضاء على سلمين فى موطنهم الجديد ، لقد قاتلت المسلمين فى عدة معارك ، بها بدر وأحد والخندق بلا جدوى .

حتى فى تلك الغزوة الأخيرة (الخندق) التى أرادت لها أن تكون سلة ، فحشدت لها كل ما أمكنها حشده من قوى أخرى إلى جانبها متمثلة فى القبائل العربية واليهود ، لم تجدها شيئاً .. والذى يتصور زيشاً - إزاء هذا الفشل - سوف تضعف عزيمتها ، ويفتر استعدادها دة إلى التجربة مرة أخرى .

وهنا تظهر عبقرية الرسول ﷺ في فهمه لطبائع البشر ، وفراسته في
الرصد ملاح الضعف ، في قوة خصمه ، وسرعته الفائقة في إتخاذ القرار
الصحيح في الوقت الملائم تماما لتوجيه «الضربة القاضية» .. الآن
نغزوهم ، ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم !!

الضغط الاقتصادي على قريش :

وخلال تلك الفترة نجح المسلمون في فرض الحصار الاقتصادي على
قريش بالسيطرة على طريق التجارة إلى الشام ، ثم على طريق العراق الذي
تحولت إليه ، فبعد أن أصبح طريق الشام محفوقاً بالمخاطر ، تحولت قريش
إلى طريق العراق ، فقد قال صفوان بن أمية : «إن محمداً وأصحابه
عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يرحم
الساحل وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى
نسلك ، وإن أقمنا في دارنا هذه ، أكلنا رعوس أموالنا ، فلم يكن
من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحجاز
في الشتاء» فأشار عليه الأسود بن عبد المطلب أن يتخذ طريق العراق
ففعل ، وتجهز من البضائع والفضة بما قيمته مائة ألف درهم ، غير
الرسول ﷺ بعث زيد بن حارثة في مائة راكب فاستولى على القوافل
وهي في طريقها عند ماء يقال له (القردة) من مياه نجد ، وهكذا لم
أمام قريش إلا التجارة مع الحبشة ، وكان لذلك أسوأ الأثر على
الاقتصادية .

فلا بد وأن يكون لهذا الضغط الاقتصادي أثر كبير في دعوة قريش إلى أن «تعيد النظر في موقفها» ضد المسلمين ، فيكون الضغط العسكري الذي يتحقق بعد انتزاع المبادأة ، «دافعاً» لها أكثر وأكثر في هذا الاتجاه .

تأمين قاعدة المدينة :

لقد أصبحت المدينة خلال تلك الفترة «قاعدة أمينة» يستطيع الرسول ﷺ أن «يتركها» خلفه ، ويعد عنها ما شاء من مسافات ، «ويغيب» عنها ما شاء من زمن ، ثم «يعود» إليها ، ليجدها - كما تركها - صلبة قوية أمينة .

والواقع أن تأمين المدينة كقاعدة للإسلام ، بدأ منذ اللحظة الأولى لوصول المسلمين إليها بعد الهجرة ، فكان أول ما عمد إليه الرسول القائد ﷺ «إقامة جبهة داخلية صلبة» وذلك بجمع صفوف المسلمين وتوحيد جبهتهم وإيجاد رابطة قوية بينهم (توحيد صف الأنصار من أوس وخزرج ، والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين) ثم بتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لكافة سكان المدينة من المسلمين والمشركون واليهود بمقتضى ميثاق المدينة .. كل ذلك تأمين للقاعدة «من الداخل» ..

ثم كان تأمين المدينة «من الخارج» بعقد المعاهدات والاتفاقات مع مختلف القبائل العربية ، فهذه الاتفاقات - فضلاً عن أنها كفلت حرية الدعوة - فقد كفلت حسن الجوار والمعاملة وهو ينطوي على تأمين كبير

للمدينة لأنه يحرم قريشاً من الاعتماد على هذه القبائل أو مخالفتها أو إتخاذها «قاعدة» للعدوان على المدينة .

كفاءة أجهزة المعلومات والأمن :

وثبت خلال تلك الفترة أن للمسلمين أجهزة للمعلومات والأمن على درجة عالية من الكفاءة ، تتمثل في أمرين ، الأمر الأول شبكة من العيون والأرصاد منتشرة في أنحاء شبه الجزيرة ، لإبلاغ الرسول ﷺ بالمعلومات عن نوايا أعدائه وحركاتهم ، فقد علم ﷺ من عمه العباس في مكة بتجهيز قريش لمهاجمته قبل غزوة أحد وغزوة الخندق ، وكان الدليل الناصح على كفاءة أجهزة المعلومات هذه أن المسلمين «لم يؤخذوا على غرة أبداه» ، فشكلت بذلك مصدر أمن مستمر يكون له دور فعال في تأمين حركة المسلمين وحرمان أعدائهم من مباغتتهم .

ثم نضيف إلى أجهزة المعلومات ، جهاز الأمن الذي نجح في المحافظة على أسرار المسلمين وحرمان العدو من كشفها ، وواقعة منع رسالة حاطب ابن أبي بلتعة من أن تصل إلى قريش قبل غزوة الفتح خير ما يذكر دليلاً على ذلك ، هذا بالإضافة إلى ما كان لدى المسلمين من وعى الأمن والمحافظة على الأسرار .

تنفيذ القرار :

لقد كان فتح مكة بطبيعة الحال هو قمة الأعمال التنفيذية لقرار انتزاع المبادأة ، باعتبار أن مكة هي الهدف الرئيسي ، لكن الفتح لم يقع إلا في

من السنة الثامنة للهجرة أى بعد صدور القرار بسنوات ثلاث ، فما هو السر فى هذا ؟ الواقع أن دراسة أحداث تلك الفترة من فندق إلى ما قبل الفتح تكشف عن مخطط بالغ الدقة والإحكام لطريق تعاملاً لسير المسلمين إلى هدفهم الرئيسى مكة ، كما أنها تبرز تأ عظيمًا يعلم المسلمين أن يتعدوا عن العمل المتسرع أو غير ، وأن تكون خطواتهم نحو أهدافهم محسوبة بكل الدقة والإحكام .

يلفت نظر الباحث المدقق أن الغالبية العظمى لسرايا القتال بعثت لك الفترة (أكثر من ثلاثة أرباع مجموع عدد السرايا) ، كما أن عليه السلام قاد فى تلك الفترة خمس غزوات هى بنى قريظة وبنى ي قرد والحديبية وخيبر .

الأمن فى المنطقة الشمالية :

ث هذا العدد الكبير من السرايا فكان لتأمين المنطقة الشمالية يد الشام ، والعراق ، والسيطرة على القبائل العربية فى تلك المنطقة ن ، وبنى كلاب ، وبنى مرة وبنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة ، وبنى سليم ، وبنى الملوخ وجهينة ، والقبائل التى عاونت الروم مين .

على اليهود عسكرياً :

زوات فقد قضى الرسول عليه السلام على اليهود عسكرياً بغزوهم بظة وخيبر .

لقد فتح اليهود - بنقضهم العهد - «جبهة ثانية» ضد المسلمين عليهم أن يواجهوها بالردع الذي تستحقه ، وكانت غزوة خيبر ضم القضية ، إذ كانت المعقل الرئيسي لليهود في شبه الجزيرة ، وكان أهلها أقوىاء مسلحين اس سبعة حصون تكتنفها البساتين ، وكانوا يعلمون علم اليقين أن إندحارهم معناه القضاء على بني إسرائيل في شبه الجزيرة .

وهكذا أمن الرسول القائد ﷺ - بسقوط خيبر - بأس اليهود بأنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة ، وبأنه يستطيع بعد ذلك أن جنوباً نحو هدفه الرئيسي .

زيادة قوة الجيش ورفع كفاءته القتالية :

ولقد أتاحت غزوة الحديبية قيام هدنة أتاحت للمسلمين أن يزد حجج الجيش إلى درجة لم يكونوا بالفيها من قبل ، يؤكد ذلك قوة الجيش في غزوة الخندق بقوته في الفتح ، ففي الخندق كان ثلاثة آلاف ، وفي الفتح كانت عشرة آلاف ، وتلك قفزة كبيرة قصير نسبياً .

وارتفعت كفاءة الجيش القتالية إلى أقصى حد ، بعد أن بلغ من عمليات القتال منذ بدأ الصراع في السنة الثانية للهجرة إلى الفتح قرابة ستين عملية ، قاد منها الرسول ﷺ أربعاً وعشرين وقاد أصحابه ما بقى منها ، ومارس المسلمون في هذه العمليات ك

القتال من دفاع وهجوم ومطاردة وإغارات ، وقاتل فى القرى ، وحصار المواقع الحصينة ، وغيرها ، كما أصبح للجيش عدد كبير من القادة الأكفاء القادرين على قيادة العمليات المستقلة .

إضعاف إرادة قريش القتالية :

وأصيبت إرادة قريش القتالية بالضعف نتيجة لعدة عوامل نذكر منها :

- تجريدها من الحلفاء وخاصة اليهود بعد القضاء عليهم عسكرياً .
- انفتاح المجال أمام الرسول ﷺ - بعد الحديبية - لمحالفة القبائل التى لم تكن مطمئنة إلى محالفته لقوة قريش لوجود الكعبة فى مكة مما أضعف شوكة قريش .
- انتشار الإسلام جعل جانباً من قريش يدين بالإسلام وجانباً آخر باقياً على الشرك فأصبح من المستحيل أن «تجتمع كلمتها» على حرب المسلمين .

أغلى الدروس :

وهكذا أصدر الرسول ﷺ قراره التاريخى بانتزاع المبادأة - فى الوقت المناسب - من يد أعدائه ، وانتقل بالمسلمين من نطاق رد الفعل إلى نطاق الفعل فى غير اندفاع أو مجازفة ، بل بتخطيط سليم ، وخطوات محسوبة ،

واضعًا في إعتباره كل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ، ثم سار نحو هدفه الرئيسي فحققه على أكمل ما يكون التحقيق ، وجنى ثمرة الأخذ بالأسباب والإعداد والاستعداد ، واثقًا - منذ البداية - من معية الله ، شاكرًا لربه ومسيحًا بحمده على النصر والفتح وروية الناس يدخلون في دين الله أفواجًا..